c.99

الموسوعة الصغيرة
(٥٥)

الشيخ ايوب حسين التميمي

برج بابـــل

تاليف : اندريه پارو

ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ــ بغداد

الجمهورية العراقية ا. ك ٢ ١٩٨٠

المترجم في سطور
جبرا ابراهيم جبرا

- ولد عام ١٩٢٠ في بيت لحم ، فلسطين ، وتلقى العلم في الكلية العربية بالقدس ، وبجامعة كيمبدج في انكلترا ، وجامعة هارفرد في الولايات المتحدة .
- قضى سنوات عديدة في تدريس الأدب الانكليزي في الكلية الرشيدية بالقدس ، وفي كلية الآداب ببغداد .
- كان لفترة مدير المطبوعات في شركة نفط العراق ، وبعد تأميمها عين رئيساً لمكتب الاعلام والنشر والترجمة في شركة النفط الوطنية .
- في عام ١٩٧٦ كان استاذاً زائراً للادب العربي المعاصر بجامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة .
- في اواسط عام ١٩٧٧ عين خبيراً في وزارة الثقافة والاعلام .
- له اكثر من خمسة وثلاثين كتاباً ، بين موضوع ومترجم .

من مؤلفاته في النقد
- ينابيع الرؤيا
- الرحلة الثامنة

وفي الرواية
- البحث عن وليد مسعود
- السفينة
- صيادون في شارع ضيق
- صراخ في ليل طويل

له مجموعة قصصية وثلاث مجاميع شعرية
- من اهم ما نقل الى العربية ست مسرحيات لشكسبير ورواية وليم فوكنر الصخب والعنف
- رسام ساهم في نشاطات ومعارض جماعة بغداد للفن الحديث قرابة عشرين عاماً

مؤلف « برج بابل » The Tower of Babylon

أندريه پارو

André Parrot

منقّب آثاري فرنسي كبير . قام بأعمال تنقيبية هامة في العراق ، وكان رئيساً للفريق الآثاري الذي اكتشف الكثير عن حضارة ماري . له دراسات آشورية وبابلية كثيرة . وكان لسنين عديدة الناظر العام للمتاحف الوطنية الفرنسية .

مقـــدمة

بـــرج بابل

في عام ١٩٤٩ نشرت كتابا بعنوان « الزاقورات وبرج بابل » ، كان ثمرة عشرين سنة من البحث في تراب وادي الرافدين ، حيث كتب علي ان اعود مرة اخرى وفاس التنقيب في يدي . وقد فكرت كثيرا طوال ذلك الوقت في المقارنة التي جعلت تنهض بين مكتشفات علم الاثار وكلمات التوراة ، وشعرت بأن الوقت قد حان للتوقف واعادة النظر في الذي لدينا . وكنت لفترة ماقبل ذلك ارى ان وراء قصة الاصحاح الحادي عشـر من ســـفر « التكوين » شيئا ما خفيا يختلف عما داب اهل اللاهوت التقليدي على تاكيده . وبلغ بي الاستنتاج ان « البرج » الذي تذكره التوراة لم يكن تعبيرا عن كبرياء الانسان . ورايت فيه ، لا قبضة يرفعها

الانسان تحديا في وجه السماء ، بل يدا يرفعها ضراعة ، صرخة يطلقها استغاثة بالسماء . كانت هذه موضوعة جريئة خارجة على المألوف ، ولكنني شعرت بانني لا استطيع ، ولاينبغي لي ، ان اتهرب من قناعتي المتزايدة بانها الراي الصائب . ودافعت عن تاويلي هذا في العديد من المحاضرات التي القيتها في سويسرا ، وشمال افريقيا ، وهولندا والكثيرون ممن اصغوا الي اعلنوا عن اقتناعهم بما قلت ، وشجعني تاييدهم على ان اضع في كتاب ما رددته حتى ذلك الحين في محاضرات فقط . وبعد ذلك ببضع سنوات استخدمت محاضرات « الاليانس فرانسيز » هذه فيرسالة دكتوراه في اللاهوت ، معرضا نفسي بذلك لتهجمات اللاهوتيين وقد اقتصر بعضهم على مجرد القول بأن ما بلغته من «استنتاجات لاهوتية سطحي اكثر ممايتبغي .» واما البعض الاخر فحاول ان يجيب على النقاط التي اثرتها ، محاولا ان يوفق بين العقيدة التقليدية وبين الحقائق التي اثبتها علم الاثار ولا مجال لنكرانها . وفي جوابي عليهم حاولت ان ابلغ موضوعة

جامعة للطرفين ، لان الحقيقة كثيرا ماتوجد في التوفيق بين ضدين .

وقد تصدى ناقد باريسي لبحثي « الكشف عن عوالم دفينة »، ولاولى دراساتي ، « الطوفان وفلك نوح »، وقال انني « موضوعي جدا ،وصاحب فطنة » ، ولكنني لست « شاعرا » . (حول النقطة الاخيرة هناك من يرى غير ذلك .) ثم اضاف الناقد انني اتغاضى عن ، او اشكك في ، كل تلك الرمزية « اي ، تلك الروح الوثابة الكامنة فيالطقوس والعمارة الدينية ». ناقد كهذا لايعرفني معرفة جيدة ، وانا آمل ان هذه الدراسة ستثبت ان قوله يناقض الحقيقة . لان همي الاول ابدا هو النفاذ الى ماوراء المظاهر ، والاشكال الملموسة ، بحثا عن الروح التي كانت تخفق في صدور هذه الشعوب الدفينة . فذلك البرج الذي اقيم في وسط سهل شنعار انما هو البؤرة التي التقى فيها توق الانسانية كلها الى اختراق سر مصيرها .

جاءتنا قصة « برج بابل » من «العهد القديم (تكوين ، ١١) . وهي تلي مباشرة قائمة الشعوب التي نهضت من بزرة نوح (تكوين ، ١٠)، وتسبق قائمة ذرية سام (تكوين ١١ ، عدد ١٠ ـ ٢٥) التي تنتهي الى ظهور الاباء الاوائل في شكل اسرة طارح التي تغادر «اور الكلدانيين » (تكوين ١١، عدد ٣١) . ووادي الرافدين هو الخلفية لكل ماجرى منذ البداية حتى الفترة التي رات كارثة الطوفان . وبعد تلك الكارثة ، يقع الحدث الباقي الذكر والذي دونه سفر « التكوين » كما يلي :

وكانت الارض كلها ذات لغة واحدة ، وكلام واحد. وحدث انهم ، فيما كانوا في ترحالهم من الشرق ، وجدوا سهلا في ارض شنعار

فاقاموا هناك . وقال بعضهم لبعض : هيا ، لنصنع آجرا ،نشويه جيدا . وكان لهم آجر عوضا عن الحجر ، وقير عوضا عن الطين . وقالوا : هيا ،لنبن مدينة وبرجا تبلغ قمته السماء . ولنجعل لنا اسما ، لئلا نتشتت على وجه الارض كلها . ونزل الربّ ليرى المدينة والبرج اللذين شيدهما بنو الانسان . وقال الرب : ارى ان البشر كلهم واحد ، وان لهم جميعا لغة واحدة . وقد شرعوا في عمل هذا، ولن يعصى عليهم شيء فكروا في صنعه . فلننزل ، ونبلبل لغتهم ، لكي لايفهم بعضهم كلام بعض . وهكذا فان الرب شتتهم من هناك على وجه الارض كلها ، وكفوا عن بناء المدينة . ولذا فان اسمها بابل ، لان الرب هناك بلبل لغة الارض جميعا ومن هناك شتتهم بعيدا على وجه الارض كلها .
(تكوين ١١ ، عدد ١ — ٩)

المأثور المدون هنا يشكل جزءا من « الدورة اليهوية » . ولا استطيع ان اجد اي تاييد لاقتراح

بعض دارسي التوراة القائل بانه نتيجة الدمج بين روايتين اثنتين ولئن يصدق هذا على قصة الطوفان فان الامر في هذه الحالة ليس كذلك،حتما. ولذلك فان الاثر المدون الذي ندرسه هنا قد تم تسجيله في غضون الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد. ونكاد نجزم انه بابليّ الاصل. ففيه اشارات كثيرة واضحة الى اللون المحلي ، من السهل ان يتبينها اي امرىء اقام ولوزمنا قصيرا في وادي الرافدين . وحسبنا كلمة «سهل» — فهي فورا تستحضر في الذهن ذلك الاتساع المترامي من الارض السطحاء ، وهي الان يباب ، اذ تمتد على مرمى البصر مئات من الاميال بلونها الترابي . « وكان لهم آجر عوضا عن الحجر ، وقير عوضا عن الطين » : فيذكر المرء في الحال تلك المباني السومرية الضخمة المشيدة من الاجر المشوي كالتي عملت في التنقيب عنها عام ١٩٣٢ في تلو ، والتي كانت مداميكها المثبتة بالقير ما تزال تقاوم نؤوس العمال . «مدينة وبرجا » : ان القوم (ولعلهم السومريون) الذين رحلوا « من الشرق » ، اي من الهضبة الايرانية ،

وعلى الارجح من اماكن ابعد شرقا ، جاؤا وحلوا في ارض شنعار . وبامتلاكهم حضارة رائعة نظموا انفسهم في مدن قوية ، وفي هذه المجتمعات المتوطنة اصبحت الكنيسة والدولة شيئا واحدا . وارتفع فوق اسطح المنازل ذلك البرج المقدس ، الزقورة ، بطوابقه المدرجة المشرفة على المدينة كلها .

قصة التوراة هذه ، حين توضع في سياقها وفترتها الزمنية ، نجد انها لايمكن ان تشير الا الى سكان وادي الرافدين ، الذين توفرت لنا المعلومات عن طريقة عيشهم وافكارهم الدينية نتيجة للحفريات الآثارية* . وهذا امر يقبله الآن تقريبا كل دارسي

---

* يقول الاب شين في كتابه « سفر التكوين » ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٦ : « لاريب ان اساس القصة هو احد الابراج المدرّجة الكبرى ، او الزقورات ، التي كانت تستخدم في عبادة الالهة الكوكبية . » وفي عام ١٩٥١ كتب الاب دي فو يقول : « كان المانور قد تعلق باحد الابراج المدرجة الشاهقة التي كانت تبنى في وادي الرافدين لترمز الى الجبل المقدس ، ولتكون مسكنا للاله . » وساعود فيما بعد الى قضية معنى هذه الابراج .

التوراة . ولو توقفت القصة عند العدد ٥ ، لما كان فيها صعوبة . فعند هذه النقطة يتدخل يهوه ، مغضبا لمغامرة من البشر تهدده في سمائه . فتنزل لعنته على المبنى المتطاول عليه ، ويتشتت القوم ويهجرون مهمتهم ويطلق على المدينة التي شهدت مغامرتهم اسم « بابل » ، لانها المكان الذي « بلبل » فيه يهوه لغة البشر ، وهي المكان الذي شتتهم عنه.

ان الذين يقراون النص مترجما وحسب ، لن يدركوا ان هذا التفسير ياتي بصعوبة لايمكن تخطيها. فالراوي هنا انما يصل مابين اسم المدينة ، بابل والتدخل الالهي، مفسّرا اياه بالاشارة الى «البلبلة» التي انزلها يهوه باللغة الواحدة التي كان يتكلمها الجنس البشري باجمعه. انه ، بعبارة اخرى ، يقرن بين « بابل » وبين الجذر العبري « ببل » ، الذي يعني التشويش ، او الخلط . غير ان حقيقة الامر هي ان « بابل » تتالف من كلمتين اكاديتين : باب ايلو (باب الله) . ولسوف تسنح الفرصة للعودة الى هذا الموضوع فيما بعد ، عندما ناتي الى معنى البرج .

هذه هي قصة التوراة ،وهي الوثيقةالاساسية في استقصائنا . ولاوضح في الحال ان هذه الحادثة لا يرد في التوراة اية اشارة اخرى اليها ابدا ، وان ما من شخصية في العهد القديم او الجديد يشير اليها بأي شكل من الاشكال . واقل مايمكن ان يقال في ذلك هو ان هذا الصمت مدهش حقا .

مهما يكن من امر فان ثقاة التوراة جميعا يعتبرون بان القصة الواردة في الاصحاح الحادي عشر من سفر « التكوين » كان « منطلقها » خرائب احد الابراج الضخمة التي يسميها الاثاريون «الزقورات» ، وان « برج بابل » لم يكن الا الزقورة المقامة في بابل ؛ في القلب من ارض شنعار . وبما ان المدون في التوراة في الاصحاحات الاحد عشر الاولى من سفر « التكوين » يحفظ مأثورات هي اما من اصل رافديني ، او على الاقل مشبعة بافكار من وحي وادي الرافدين ، فان الذي يلفت النظر هو ان نجد عند هذه النقطة من سفر « التكوين » — في زمن كانت اسرة الاباء الاحبار فيه مازالت

مقيمة بمدينة اور — قصة يجب الا نقراها (ولا يمكن ان نفهمها فهما صحيحا) الا اذا تذكرنا مكانها من السياق التاريخي ، والجغرافي ، والديني .

النصوص المسمارية :

كثيرا ما يرد ذكر الزقورات في الادب البابلي. واقدم الاشارات المنقوشة تعود الى غوديا ، ملك لكش (في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد) ، في جنوب وادي الرافدين، على مسافة زهاء خمسين ميلا من اور . فحاكم هذه المدينة السومرية يشير ، ضمن مبان مقدسة اخرى ، الى الـ « اي — با ، الهيكل ذي الطوابق السبعة » ، الذي اقامه لاله المدينة ، ننغورسو .

ويليه ملوك عديدون يذكرون تشييدهم لمثل هذه المباني ، وغالبا مايصوغون العبارات التي ينقشونها بلهجة من التفاخر والتباهي . هذا مايقوله مؤسس السلالة البابلية الجديدة ، نابوبولاسر (٦٢٥—٦٠٥ ق.م)عن البرج الذي

رممه في مدينة بابل :

« امرني الرب مردوك بشان ايتيمينانكي، برج بابل المدرج ، الذي كان قبل زماني قد اصابه البلى والخراب ، ان اوطد اسمه في حضن العالم السفلي ، واجعل قمته كالسماء . »

وبردف الملك قائلا :

« امرت بصنع الآجر . وكما الامطار من الاعالي لاتقاس او التيارات الدافقة جعلت انهرا من القير يؤتى بها بقناة اراهتو .... اخذت قصبة وبنفسي قست الابعاد (التي ستعطى للبرج) ... اتبعت نصائح الالهة شاماش واداد ومردوك ، فاتخذت قرارات وحفظتها في قلبي .وحفظت قياسات (البرج) في ذاكرتي ، ككنز . وضعت (في الاسس) تحت الاجر ذهبا ، وفضة، واحجارا كريمة من الجبال ومن البحر . وامرت بصنع تمثال لشبهي الملكي ، مرتديا الدوبشيكو ، وجعلته في الاسس . ولربي مردوك حنيت رقبتي ،

وخلعت ردائي ، شارة دمي الملكي ، وعلى راسي حملت الاجر والتراب . واما ابني البكر نبوخدنصر ، حبيب قلبي ، فجعلته يحمل الطين وتقدمات الخمر والزيت ، برفقة ابناء رعيتي . »

من الممتع جدا ان نجد في هذا النقش المسماري تكرارا لعدة ملامح من قصة التوراة التي ذكرناها آنفا : الآجر المشوي ، القير ، وبوجه خاص فكرة جعل القمة « كالسماء » ــ اي عالية كالسماء . فالقوم الذين ذكرهم الاصحاح الحادي عشر من من سفر « التكوين » استخدموا المواد الخام نفسها ، وكان لهم الطموح نفسه .

كانت عملية البناء تتطلب موارد ضخمة من المواد واعدادا ضخمة من العمال . ونبوخدنصر (٦٠٤ ــ٥٦٢ ق.م .) لم يستخدم رعاياه فقط لقد كانت تلك ايام العمل السخرة وتجنيد العمال الاجانب . وهذا مادونه بهذا الشأن :

« كل الشعوب من امم عديدة اجبرتها على العمل في تشييد ايتيمينانكي ... واقمت المسكن العالي لربي مردوك على قمته . »

لعل الناس عموما لايعرفون ان بحوزتنا لوحا يعطي ابعاد ايتيمينانكي ، زقورة بابل . وهو اللوح المعروف باسم « لوح ايساغيل » والموجود حاليا في جناح الاثار الشرقية في متحف اللوفر .

يعود النص بتاريخه الى الفترة السلوقية . بل ان التاريخ مدون بدقة : « اليوم السادس والعشرون من الشهر التاسع من السنة الثالثة والثمانين لحكم الملك سلوقس . » اي ، سلوقس الثاني ، ١٢ كانون الثاني عام ٢٢٩ق.م) وقد كتب اللوح في مدينة اوروك (المذكورة في سفر « التكوين » ، ١٠ ، ١٠ باسم ايريخ) ، وهو ولاشك نسخة عن اصل اقدم يعود الى بورسيبا ، البلده المجاورة لبابل .

كان هذا اللوح منذ ان اكتشف عام ١٩١٣ موضع دراسة متانية قام بها عدد من الخبراء

بالاشوريات في محاولة منهم تاويل لغته الرمزية هذا مثلا وصف البرج كما يرد في الاسطر ١٦ الى ١٩ :

س١٦ : ابعاد كيفال ايتيمينانكي : بحيث تستطيع رؤية طوله وعرضه .

س١٧ : ٦٠ ، ٦٠ ، ٦٠ الطول ، ٦٠ ، ٦٠ ، ٦٠
العرض (محسوبا) بالذراع ايسوكلوم .
لحساب الناتج ، ٣×٣ .

س١٨ : = ٩ ، ٩ × ٢ = ١٨ . ولانك لاتعرف
قيمة ١٨ (هذه هي) : ٣ ط (صاعات
حنطة) مع الذراع السرهيتوم .

س١٩ : كيفال ايتيمينانكي : الارتفاع يساوي
الطول ويساوي العرض .

يلي ذلك وصف ثان اشد تعقيدا من الاول ، اثار غموضه الياس في صدور علماء الاشوريات من امثال لانغدن وفايسباخ . والاسطر ٢٧ — ٤٢ تستمر فتعطي التفاصيل بخصوص الطوابق التي نعلم من الوصف ان هناك سبعة منها ، ولو ان

الكاتب ، حين نسخ التفاصيل على عجل او بدون عناية ، نسي سطرا واحدا ، فبقيت تفاصيل الطابق السادس ناقصة كلها .

وفيما يلي القياسات التفصيلية كما ترد في الاسطر ٣٧ ــ ٤٢ من اللوح :

الطابق الاول : الطول ، ٢٩٥ قدما . العرض ، ٢٩٥ قدما الارتفاع ، ١٠٨ اقدام .

الطابق الثاني : الطول ، ٢٥٦ قدما . العرض ٢٥٦ قدما . الارتفاع ، ٥٩ قدما .

الطابق الثالث : الطول ، ١٩٧ قدما ، العرض ١٩٧ قدما . الارتفاع ، ١٩½ قدم .

الطابق الرابع : الطول ، ١٦٧½ . العرض ١٦٧½ قدما . الارتفاع ، ١٩¼ قدم .

الطابق الخامس : الطول ، ١٣٨ قدما . العرض ١٣٨ قدما ، الارتفاع ، ١٩½ قدم .

[الطابق السادس : الطول ، ١٠٨½ قدم ، العرض ١٠٨½ قدم . الارتفاع ، ١٩¼ قدم .]

الطابق السابع : الطول ، ٧٩ قدما . العرض ٧٩ قدما . الارتفاع ، ٤٩ قدما .

وقد كانت ثمة مصاعب اخرى غير هذه سببت امتحانا عسيرا لبراعة المفسرين وذكائهم وبخاصة المعنى الذي يجب ان يعطى لكلمة « شاهورو » التي كانت تتوج الوصف ، اذا جاز القول ، كما كانت تتوج المبنى بالذات .

على كل حال فقد كانت النتيجة التي ادت اليها الدراسات الشاقة اننا توصلنا الى معرفة ان برج بابل ، ايتيمينانكي ، كان ينهض على قاعدة مربعة طول ضلعها ٢٩٥ قدما ويرتفع في طوابق سبعة الى ارتفاع ٢٩٥ قدما . وقد عبرت في دراسة سابقة عن رايي بان هذا المبنى بطوابقه السبعة كان يحمل على قمته مبنى آخر، هوهيكل. وانا ارى ان هذا ماتعنيه كلمة « شاهورو » الواردة في اللوح المساري . وساعود الى هذا الموضوع عندما اتطرق الى الحديث عن معنى المبنى . والمرء لن يصعب عليه ان يتصور انطباع القوة والشموخ

والعظمة في انفس الرحالة والحجاج وهم يرفعون ابصارهم نحو هذا الركام الاجري الهائل ، وهو ينهض امامهم كتلة ضخمة ولكن في الوقت نفسه بتناسق رائع .

روايات الرحالة القدامى :

كان من المهم واشهرهم هيرودوتس ، من هاليكارناسس ، الذي زار بابل حوالي عام ٤٦٠ ق.م . وما رواه عن رحلته يحتوي على شهادة وثائقية تفاوت الدارسون في تقييمها ، وفي روايته نجد الفقرة التالية التي لامشاحة في انها تشير الى زقورة ايتيمينانكي :

« في وسط الهيكل (المكرس لزيوس ـ بيلوس) بني برج متين ، طوله ستاد واحد وعرضه ستاد واحد . وعلى هذا البرج قام برج اخر ، وعلى هذا قام برج كذلك ، وهكذا ، حتى كان المجموع ثمانية ابراج بسلم لولبي يحيط بها من الخارج وفي حوالي منتصف الطريق الى الاعلى ثمة مقاعد يستطيع الصاعدون الجلوس عليها للاستراحة .

وفي البرج الاعلى هناك هيكل عظيم ، وفي الهيكل سرير عظيم بديع الصنع والزينة ، وقربه مائدة من ذهب . وليس هناك اي تمثال لمعبود . ولا يقضي الليل هناك سوى امراة من اهل تلك البلاد ، كلفها بذلك الاله بالذات ، وهذا مااخبرني به الكلدانيون الذين هم كهنة ذلك الاله . »

ويروي هيرودوتس ايضا ان الاله كان احيانا ياتي الى الهيكل وينام على السرير ، وانه كان هناك هيكل اخر في الاسفل ، يحوي تمثالا ذهبيا كبيرا لزيوس ، ومائدة ، وكرسيا ، ومقعدا ، كلها من الذهب وتزن ثمانيمئة طالن .

فاذا اخذنا بعين الاعتبار النزعة الشرقية للمبالغة ، والفخامة التي تقرن عادة بالاشياء المصنوعة من الذهب (التي كثيرا ما تكون من اختراع المتحدثين اذا لم توجد ، وهي عرضة للمبالغة بوجه خاص من حيث العدد والحجم والوزن) ، فان رواية هيرودوتس تحوي معلومات

دقيقة وثمينة ، يعترف علم الاثار الحديث بصحتها واصالتها .

ولكننا لانستطيع قول الشيء نفسه عن رواية ديودورس الصقلي (القرن الاول للميلاد) ، لما يزينها من تفاصيل خيالية . ولن يخدع اليوم احد بدقة مافيها من تعداد واحصاء . مع هذه الرواية. على كل ، نكون قد بلغنا مرحلة التلفيق والاطناب . فالقصة منذ ذلك الحين ، كقصة الطوفان ، يجري عليها الكثير من الوشي والاضافة ، وينطلق الخيال بالرواة لمشقهم العجيب والمدهش . فيعود هاربو كراتيون الاسكندري من رحلته الى بابل (حوالي عام ٢٥٥ م) حاملا ملاحظات ابداهاله شيخ « سوري » عند رؤيته خرائب المدن، ولا سيما عند وقوفه على اعتاب احد الابراج المهدمة : « لقد بناه العمالقة الذين ارادوا التسلق الى السماء . وعقابا لهم على هذه الحماقة الشريرة ضربت بعضهم الصواعق ، واصبح بعضهم ،، بامر من الله ، غير قادرين على تبين بعضهم البعض ، وسقط الباقون راسا على جزيرة

كريت ، حيث قذف الله بهم في غضبه . » هل كان الشيخ «السوري» اذ يروي هذه الحادثة يعيد صدى الاسطورة الاغريقية القديمة عن العمالقة ابناء « الارض » ، الذين اقاموا جبل اوصا على جبل بيريون ، مهددين بذلك جبل الاوليمب ؟ يخيل الي ان هذا محتمل لحد ما ، والمسالة انما تمدنا بمثل اخر على الشبه القائم بين مأثورات شعوب مختلفة ، وهذه المأثورات جوهريا واحدة ، غير انها تتباين في صورها لكيما تتناسب عقليات متباينة .

لقد استمر البحث الآثاري في وادي الرافدين لأكثر من مئة سنة حتى الآن ، وهيأ لنا ثروة من الدلائل [illegible] بابل كان [illegible] فما الذي [illegible] التوراتية ؟

الدلائل الآثارية

[illegible] كثيرة وجدت عليها صور منقوشة تمثل [illegible] من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، اكتشف الباحثون في التنقيب الآثاري أمثلة دقيقة [illegible] ، وقد قدمت في الآونة الأخيرة بأعداد [illegible] مددا كبيرا

[illegible]
وتساؤلها :
[illegible] ولكننا لا نستطيع أن نشير بعد من رواية
[illegible]
[illegible]
[illegible] تكون قد بلغت مرحلة التلفيق والاختلاف
[illegible] مثل ذلك الدين ، كقصة الطوفان ، وحوادث
[illegible] والإضافة ، وقصص [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ملاحظات [illegible] شيء من [illegible]
[illegible] ولا سيما عند وقوفه على
[illegible] أحد الآراء [illegible] ، للقرب [illegible] الذين
[illegible] السماء ، ومثلا [illegible] على [illegible]
الجزيرة العربية [illegible] العراق ، واسع
[illegible] قادرين على [illegible]
[illegible] الباقون دائما على جزيرة

لقد استمر البحث الآثاري في وادي الرافدين لاكثر من مئة سنة حتى الان ، وهيا لنا ثروة من الدلائل القيمة . وبما ان برج بابل كان زقورة ، فما الذي نعرفه اليوم عن هذا النمط من الهندسة المعماريـــة ؟

ثمة انصاب ومبان كثيرة وجدت عليها صور منقوشة تمثل الزقورات ، هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى ، اكتشف الباحثون في اثناء التنقيب الآثاري امثلة حقيقية عليها . وقد قمت في الآونة الاخيرة باعداد قائمة بها ، فوجدت عددها كبيرا

حقا . فالقائمة تحوي ثلاثة وثلاثين برجا مقدسا* اما انها فعلا اكتشفت ، او تم البرهان القطعي على وجودها بطرق اخرى ، في سبع وعشرين مدينة مختلفة . والمقارنة بين هذين الرقمين ترينا في الحال ان المدينة الواحدة قد تكون فيها احيانا اكثر من زقورة واحدة. وهذه نقطة مهمة. ولابد ان المجموع كان اكبر مما توصلنا اليه ، لان القوائم القديمة تتحدث عن زقورات في مدن لم ينقب عنها بعد ، وفي مدن اخرى ايضا (كنيوى ، مثلا) حيث لم يعثر الاثاريون على اي اثر لها . وهذه الحقيقة تعطي بعض الدليل على مدى الخراب الذي نزل ببعض العواصم القديمة ، وكذلك على المصاعب التي

* ادخلت في هذا الرقم مايسمى « بالهياكل البنية على شرفة عالية » ، التي اعتبرها الشكل الاصلي للزقورات وهي التي سأذكرها فيما بعد . اما اذا اراد القارىء وجهة نظر مضادة حول تنامي هذا النمط المعماري ، فليراجع « مجلة الاشوريات والاثاريات الشرقية » العدد ٥) (١٩٥١) ، ص ٣٨ ، الدراسة بقلم م . لامبرت ور.ج تودني

يجابهها حتى امهر المنقبين وانبههم . واود ان اذكر هنا زقورة اخرى يجب ان تضاف الى القائمة : وهي التي اكتشفتها انا شخصيا في ماري في موسم حفرياتي الاخير (تشرين الاول ـ كانون الاول ، ١٩٥٤) .

قبل الخوض في تفاصيل هذه الدلائل المعمارية لنتريث برهة ونتأمل في المباني التي وجدت فيها صورة منقوشة تمثل الزقورات .

صورة الزقورات :

تظهر هذه الصورة على الاختام الاسطوانية* واحجار الـ « كودورو »** ، والتمائم ، والنحوت الناتئة ، وعلى الاقل جرة كبيرة واحدة ، وهناك صورة زقورة ، في نحت ناتيء هذه المرة ، على لوح برونزي عثر عليه في مدينة سوسه .

* تبدا هذه الاختام بالظهور في وادي الرافدين في اواخر الالف الرابع ق . م .

** هي قطع حجرية تزينها النقوش والنتوءات ، توضع في الهياكل تيمنا بتحقق صفات معينة مرجوة .

والمنقوشات المحفورة اهم مصدر لدينا للمعلومات ، لان نماذجها المكتشفة تعود الى فترات تاريخية مختلفة . ولذا فان المرء يتوقع ان يستطيع تقصي تطور محدد في الهندسة المعمارية المقدسة . غير ان الامر ليس كذلك في هذه الحالة . مثلا ، لدينا صورتان للزقورة ، احداهما من مستهل الالف الثالث ق.م ، والاخرى من الفترة الاشورية (الالف الاول ق.م .) ، وهما لا تظهران الا فروقا طفيفة ففي كلتا الفترتين كانت الابراج تبنى على الغرار نفسه،في عدةطوابق ،يكون حجم كل طابق منها اصغر من الطابق الذي تحته ، وواجهاتها مزينة بمشاك واعمدة ملصقة بالجدران . والابراج ، فيها من الطوابق ثلاثة ، او اربعة او خمسة (فهي اذن لاتتماثل شكلا بالضبط) ، ولئن تكن لدينا دلائل ادبية على قيام بعض الابراج في سبعة طوابق ، فاننا نعثر حتى الان على صورة لبرج فيه هذا العدد من الطوابق .

الاصعب من ذلك هو ان نفسر الشخوص الانسانية الممثلة في الصور ، وهي تشغل نفسها

عند قاعدة المبنى ، او فوقه (كتلك المرسومة على جرة من سوسة ، وهي جالسة وسيقانها مدلاة) . ولشدة صغر حجم النقش (نادرا ماتكون الاختام الاسطوانية اكثر من بوصة الى بوصة ونصف في ارتفاعها) يصعب التبين ،ويعتمد دائما على التخمين فما يرى البعض انه رجال دائبون على مهمة البناء يرى الاخرون انه الهة ومتعبدون ، اذ يقدم المتعبدون الضحايا تكريما للالهة .

من اروع الصور التي تمثل الزقورة تلك التي نجدها علىطبق برونزي يدعى «ست شمشي» ،عثر عليه في سوسة في اوائل هذا القرن . وقد نقشت فيه كتابة تدل على انه يعود الى القرن الثاني عشر ق.م . والرسم يصور الطقوس المقترنة بالعبادة في الاماكن العليا . ويسمى البرج « الشروق » ، مما يجعله من انصاب الطقوس السامية . واهميته لاتضاهى بالنسبة لمن يدرس تاريخ الدين . على « الحرم » المقدس ينهض برجان اثنان ، ولكن فيهماملامح تميزهما عن المباني الرافدينية الصرف ففي كل منهما رفان او ثلاثة ، ويبدو انهما استخدما

للتقدمات او حرق البخور ، استنتاجا من الاقماع المبينة . وثمة متعبدان راكعان وجهالوجه ، والظاهر انهما على وشك البدء بمراسيم الاغتسال . وعلى مقربة منهما العدة المألوفة في مكان العبادة : مذبح عليه اقماع ، ارغفة من الخبز ، اعمدة اناء لحفظ الماء ، اجران للتضحية ، شجرة ، ولوح مصور . وهذه التفاصيل كلها مهمة ، لان المنطوى هو انها متطلبات العبادة السامية . وما اعطيته هنا من اشارات يكفي لابراز اوجه الشبه التي يبدو انها قائمة بين هذه الطقوس في سوسة والمراسيم اليهودية الخالصة . ولكن يجب القول اننا حتى الان لانعرف اي مواز للبرجين في الدين اليهودي ، واننا لم نجد ايا منهما في اي موقع فلسطيني .

اخر تمثيل للزقورة ساذكره هو ذاك الذي نراه على قطعتين من النحت الناتىء وجدتا في قصر اشور بانيبال في نينوى (القرن السابع ق.م) ، وهما الان محفوظتان في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر . يملأ النحت الناتىء لوحة حجرية واحدة ، انشطرت الى اثنتين بسبب ظروف التنقيب . وقد نقش

عليها برج ذو اربعة طوابق ، يزين الطابق الاعلى منها زوجان من القرون. هذه الحقيقة الاخيرة مهمة جدا ، لانها لاتضفي على المبنى صفة من المؤكد انها دينية وحسب ، بل تشبهها ايضا بمذبح ضخم . والمعروف ان المذابح كانت تزود عند زواياها الاربع بقرون ، وكان احد استعمالاتها هو ان كل من يمسك بها يؤوى في الحرم ويحقن دمه . من المحتمل جدا ان الزقورة في هذه اللوحة من نينوى هي زقورة سوسه ، لاننا نعلم من احدى الكتابات المنقوشة التي خلفها اشوربانيبال ان هذه الزقورة كانت لها قرون من البرونز المصقول .

زقورات وادي الرافدين :

قبل ظهور منقبي الاثار على مسرح الاحداث كان الرحالون يجوبون العراق ، تجذبهم فيه ارض مجهولة ، لسكانها طريقة في الحياة تغاير طريقة الحياة في الغرب ، رغم جهلهم بالماضي الكامن وراءها ولئن كان القادمون من الاقطار الاوربية اكثر تفهما من غيرهم ، غير ان معرفتهم انمـا كانت تتالف من الحدس اكثر من اليقين . وكان التاريخ الذي

تعلموه مبنيا ليس على كتابات الاغريق والرومان فحسب ، بل على التوراة ايضا . فعلى ضفاف الفرات كانوا يتذكرون نوحا ، واكثر من ذلك يتذكرون نمرود الصياد (تكوين ، ١٠ ، ٩) ، الذي لم تكن كل افعاله الخارقة في سبيل الخير . والواقع ان بناء برج بابل كان يعزى اليه ، اذ قيل انه حرض قوما من المتمردين على اقامة البرج ، حين عزموا على الوقوف بوجه الله ان هو اراد ان يفني الجنس البشري مرة اخرى بطوفان جديد . وكان رائدهم ان يجعلوا البرج من العلو بحيث تعجز المياه عن اغراقه مهما ارتفعت . وهكذا يتسنى للذين يلجأون اليه مع الزمن ان ينجوا من غضب الله وعقابه .

بنجامين تيوديلا (في القرن الثاني عشر للميلاد) وبعد روولف ، وجون الدريد ، وبييترو ديلا فالي ونيبوهر ، والاب جوزيف دي بواشامت ، وكلوديوس جيمزريتش ، وبكنغهام ، ور . ك . بورتر ، ومنيان — وماهؤلاء الا نفر قليل من جيش عرمرم من المستكشفين — كلهم راحوا يبحثون عن برج بابل

المذكور في التوراة في ترحالهم في وادي الرافدين . وقد استرعى اهتمامهم عدد من التلول ، ولاسيما الاربعة التالية : عقرقوف (بين دجلة والفرات ، على مقربة من بغداد) ، مجيليبة (احد تلول بابل) ، بيرس نمرود (بورسيبا القديمة ، على بعد بضعة اميال جنوب غربي بابل) ، واخيرا الاحيمر (الذي تبين الان انه كيش القديمة) . وكلهم كتبوا ملاحظاتهم عما راوا في هذه الاماكن ، ورواياتهم تعج بالتفاصيل الطريفة والحكايات الفولكلورية . واذا كانت كتاباتهم اليوم تهمنا في شيء ، فما ذلك الا لاننا هنا وهناك فيها نلتقط نتفا قيمة من المعلومات التي تيسرت لهم ايامئذ ، وما عادت تتيسر لنا لما اصاب الاثار البارزة على السطح من خراب واندثار . ولم يكن ثمة محيد عن الحفر والتنقيب اذا اردنا لمعرفتنا ان تبنى على اسس ثابتة .

اول زقورة درسها باحث اثار كانت زقورة نمرود ، التي اجرى التنقيب فيها هنري لايارد من ١٨٤٥ الى ١٨٥١ . ولكن البحث الاثاري كان يومئذ لسوء الحظ ، في طفولته ، وما نستطيع ان نجنيه

من معرفة من النتائج المستحصلة حينئذ قليل جدا اما اليوم ، في النصف الثاني من القرن العشرين، فان لدينا معلومات اوفر بكثير ؛ نتيجة التحريات التي تمت في اكثر من مئة سنة في قرابة ثلاثين موقعا على ايدي فئات مختلفة ، الامر الذي يضمن اكبر قدر ممكن من الدقة والموضوعية . وبينما تؤخذ تقارير المنقبين الاوائل ــ اي ، اجمالا ، تلك التي نشرت في القرن التاسع عشر ــ بشيء من التحفظ ، فان بامكاننا عن ثقة ان نجعل اعتمادنا المتزايد على نتائج التنقيبات التي جرت في السنين الواقعةبين الحربين. ومنالصواب ان ينذر غير ذوي الاختصاص بان الدراسات القديمة يجب ان تؤخذ بحذر شديد ، والا فانهم قد تضللهم التاويلات التي تجبرنا المكتشفات الحديثة على الحكم عليها بشيء من القسوة .

في اواخر العشرينات ، وقد غدت المعلومات المتراكمة تتوفر بكثرة ، نشر المستشرق الالماني اي. اونجز دراسة عن برج بابل راى فيها ان ثمة ثلاثة انماط من الزقورات يمكن تمييزها :

ا ــ النمط المستطيل ، في الجنوب : اور ، اوروك ، نيبور . الصعود بواسطة السلالم .

ب ــ النمط المربع ، في الشمال : اشور ، كالح (نمرود) ، خورسباد ، كار ــ توكولتي ــ ننورتا . الصعود بواسطة المنحدرات .

جـ ــ النمط المندمج ، على قاعدة مربعة (النمط الشمالي). الصعود الى الطوابق السفلى بواسطة السلالم، والى الطوابق العليا بواسطة المنحدرات. اكمل نموذج لهذا الاندماج نجده في برج بابل.

لهذه القاعدة ، كما لاي قاعدة اخرى ، ثمة شواذ ففي اريدو ، حيث يتوقع المرء ان يلقى زقورة قائمة على قاعدة مستطيلة (النمط السومري) يلقى على العكس قاعدة مربعة (النمط الاشوري) وفي كيش (الاحيمر) نجد ان خطة الاسس مستطيلة وليست مربعة .

ولكن تصنيف اونجر ، رغم هذه الشواذ ، يبقى قاعدة مفيدة للعمل بموجبها . غير اننا الان يجب ان نلحق به نمطا رابعا :

د ــ الهيكل على شرفة عالية .

وانا ارى في الواقع ان هذه الفكرة المعمارية هي الاصل والشكل الاول للزقورات البدائية . مضى وقت طويل لم يتبين فيه احد ذلك، ثم جعلت الدلائل المهمة على وجود هذا النمط من الهيكل تتوفر بالتنقيبات الحديثة في اوروك (١٣٩٠ ــ ١٩٣٩) ، خفاجة (١٩٣٠ ــ ١٩٣٧) ، عبيد ١٩١٩ ــ ١٩٣٧) ، براك (١٩٣٧ ــ ١٩٣٩) ، عقير (١٩٤٠ ــ ١٩٤١) ، واخيرا ، اريدو (١٩٤٦ ــ ١٩٤٨) .

ان كون هذه المواقع متباعدة جدا (اريدو هي اقصى مدن وادي الرافدين جنوبا ، في حين ان براك تقع بعيدا في الشمال) ، يكشف من البداية عن هوية في الاسلوب المعماري لايمكن الا ان تكون معتمدة على دين مشترك . وهذا امر على شيء من الاهمية ولعلنا نتبين صدى لذلك في عبارة

الاصحاح الحادي عشر من سفر « التكوين » التي تقول ان الساكنين في ارض شنعار كانوا شعبا واحدا، ويتكلمون جميعا لغة واحدة. ونحن الان نعلم ان تلك الوحدة كانت حقيقية بالنسبة للثقافة والدين اكثر بكثير مما كانت بالنسبة للعرق والمستوى اللغوي، على الاقل في الفترة « التاريخية » ــ اي ، منذ حوالي ٣٠٠٠ق .م . فعند هذا التاريخ نجد ان الساميين والسومريين في صراع على وادي الرافدين اذن لقد اثبت علم الاثار الحديث ان سكان وادي الرافدين في الالف الرابع كانوا قد جعلوا يقيمون بعضا من هياكلهم على شرفة عالية . والتفسير العقلاني لهذه الخصيصة المعمارية يفترض ان العراقيين القدامى كان همهم الاول ان يحفظوا مساكن البتهم (والبيكل هو دار الاله ، كما القصر هو دار الملك) من اجتياح الفيضانات المتكرره في القسم الاسفل من وادي الرافدين ، التي يحدثها ارتفاع المياه في دجلة والفرات . بيد ان هذا التفسير يترك الكثير من المعطيات المتوفرة خارج الحساب . فضلا عن ذلك، فان هذا القلق ، فيما يبدو ، انما احس به

الناس بقوة خاصة بصدد الالهة ، في حين ان خطر الفيضان كان اعظم بكثير على البشر الفانين ، ومع هذا فان مسكن الاله هو وحده الذي يرفع على هذا النحو فوق مستوى السهل .

اضف الى ذلك ان خطة الهيكل المقام للاله ، تختلف في خصائص عدة عن المنزل العادي ، لاسيما من حيث كثرة الابواب التي تجعل في الهيكل ،كانما الغرض من ذلك تيسير التواصل السريع بين الخارج والداخل . فالهيكل ،وهو مستطيل الشكل ، يتالف جوهريا من قاعة مركزية طويلة ، تطل عليها غرف صغيرة . ومن احدى هذه الغرف يمكن الصعود الى سطح « الدار » . وقد لوحظت حقيقة غريبة ادركت اهميتها في الحال ، وهي ان اسفل درجة في السلم ،في هيكل انو في اوروك،كان ارتفاعها٣ اقدام و ٧ بوصات فوق مستوى ارض الحجرة . اي انسان يستطيع ان يرقى درجة كتلك ؟ اذا لم تكن الدرجة تلك قد صنعت لانسان (والعمالقة في هذه الحالة خارجون عن الصدد) ، فلابد ان هذا السلم

قد صنع للاله نفسه . وستحين الفرصة للعودة الى هذه النقطة فيما بعد .

هنا يجب القول على الفور ان هياكل وادي الرافدين لم تكن كلها من نمط « الهيكل المبني على شرفة عالية » . فقد كانت هناك منازل الهية اخرى مبنية على مستوى السهل ، كمنازل الناس . وكل ما يمكن قوله هو ان الهيكل في بعض المدن كان يرفع الى مستوى اعلى بصورة متميزة ،بواسطة «وطيدة» او قاعدة اضافية .

عندما بنيت هذه الوطيدة في درجتين ،كما هي الحال على كل ، في العقير ، كانت عملية التطور قد بدات . ومنذ نهاية الالف الرابع وحتى منتصف الالف الثالث اصبح اعلاء الهيكل اشد وضوحا ، وكانت الوسيلة المتبعة هي زيادة عدد الدرجات في القاعدة في العقير كانت هناك درجتان اثنتان ، ولدينا نقوش تصور بنائين يقيمون ابراجا لكل منها على الاقل درجات ثلاث . وهكذا اضحى « الهيكل المبني على شرفة عالية » ، زقورة . واشهر هذه الزقورات وافضلها حفظا ولا ريب ، هي تلك التي اقيمت في

العاصمة السومرية اور . وقد اعيد بناؤها عدة مرات . واولاها عنايه خاصه اثنان من اعظم ملوك السلالة الثالثة ، اور نامو وشولغي (القرن الثاني والعشرون ــ الحادي والعشرون ق.م) وكان ذلك قبل خروج ال طارح (ابي ابراهيم) من اور بنحو من ثلاثة قرون (التكوين ، ١١ ، ١٣) ، ولابد انهم بقوا يتذكرون البرج الهائل (٢٠٥ اقدام × ١٤٠ قدما) ، بطوابقه الثلاثة المهيمنة على الفناء المسور والمبنى المكرسة للاله القمر ننا ــ سين . كان الصعود الى الشرفات يتم بواسطة ثلاث سلالم من المدرج واذ ينظر المرء اليوم الى تلك السلالم الطويلة بادراجها التي بقيت عبر القرون (ورممت في السنوات الاخيرة بامكانه ان يتخيل مسيرات الكهنة وهم يصعدون وينزلون عليها صفوفا في المناسبات المراسيمية ، التي كانت تقتضي قيامهم بواجباتهم في الهيكل الذي يتوج الطابق الثالث من البرج .

بين نهاية الالف الثالث والقرن السادس ق.م اجريت على زقورة اور عمليات ترميم وتعديل عديدة الا ان لبها الضخم المبني من الاجر المجفف بالشمس

والمغلف بكساء خارجي صلد من الاجر المشوي المثبت بالقير ، قاوم ما انزلته به الحروب والمحن من دمار . ولما جاء البابليون الجدد ، الذين تاقوا الى احياء امجاد الماضي ، اكدوا على خلافتهم لاسلافهم الغابرين بشروعهم في البناء والتشييد على مقياس افخم واضخم . فقام نبوخذ نصر ــ الذي في عام ٥٨٦ ق.م حطم هيكل سليمان ــ بترميم هيكل سين وتزيينه . واحد الذين خلفوه ، نابونيدس (... ــ ٥٣٨ ق.م .) اضاف اليه المزيد . وهكذا تنامى البرج من ثلاثة طوابق الى خمسة ، بل وربما الى سبعة : فهو في ارتفاع مستمر . وما قاموا به في اور ، كانوا يقومون بمثله في العاصمة نفسها ، بابل .

لابد ان شهرة بابل طبقت الافاق وملأت «الارض كلها» وكان لها ان تتباهى بتاريخها الطويل ولذا فانه لمما يثير فينا الخيبة اننا لانعرف من ماضيها الا القليل ، رغم كل ماقام به من تنقيب وبحث الدكتور كالدواي وبعثته الالمانية بين عامي ١٨٩٩ و ١٩١٧ .

ان معرفتنا لاتعود الى ماهو ابعد من فترة السلالة الاولى في بابل (١٨٩٤ ــ ١٥٩٥ ق.م .)،

التي كان من اعظم ملوكها حمورابي (١٧٩٢ـ١٧٥٠ ق.م) وكانت المدينة في العصور السومرية تسمى كا ـ دنكير ـ را ، وحول اللسان الاكدي هذه التسمية الى باب ـ ايلي (واحيانا نادرة الى باب ـ ايلاني)، وهذه ، كما ذكرت في الفصل الاول ، نسختها التوراة نسخا امينا بشكل « بابل » وليس ثمة من شك في ان معناها هو «باب الاله» او «باب الآلهة» اذن ، بابل هي المدينة التي يجب ان نتوقع ان نجد فيها «برج بابل » .

وهناك بالفعل تم العثور على موقع البرج ، في بقعة تدعى « الصحن » . غير ان الاكتشاف كان مخيبا للغاية . وباليت الزقورة وجدت خربة مهدمة ... ففي عام ٤٧٨ ق.م شرع اكزركسيس بهدمها وجاء الاسكندر الكبير واراد اعادة بنائها ، فامر برفع الحطام والركام واخلاء الموقع ـ وكانت تلك مهمة جبارة بدىء بها ، ولكنها تركت قبل ان تكمل وفي القرون اللاحقة وجد السكان في بقايا البرج مصدرا مفيدا جدا لمواد البناء ، ومدهم لمئات السنين بآجر مشوي فاخر لبناء منازلهم.* وعندما وصل

* مدينة الحلة ، القريبة من بابل ، بنيت في معظمها بآجر من بابل .

كولدواي الى الموقع عام ١٨٩٩ ، كان الخراب فيه لايمكن اصلاحه . فقد تحول الى ماهو اشبه بالمقلع ورغم ذلك كله ، فقد افلح في استخراج الدلائل المعمارية منه .

كانت زقورة بابل تدعى « اي ـ تيمن ـ ان كي » (« دار اساس السماء والارض ») . وكانت تقرن بالهيكل « اي ـ ساغ ـ ايل » ، المكرس لمردوك ، اكبر الهة المدينة ، وتقوم وسط فسحة واسعة مسورة ، مستطيلة الشكل (بعداها من الخارج : ٥٠٠ × ٤٥٠ ياردة) ، ولكن لم يكن قد بقي منها مايرى بوضوح سوى تخطيطها . وتبين انها بنيت على اساس مربع طول ضلعه اكثر بقليل من ٢٩٨ قدما* ، وجعل « اللب » منها من آجر مجفف بالشمس ، محاط بقشرة سلدة من الآجر المشوي سمكها ٤٩ قدما . وكان الصعود الى الطوابق العليا من المستوى الارضي بواسطة ثلاثة سلالم ، اثنان منها على الواجهة الجنوبية ، وجعل الثالث في الوسط على زاوية قائمة من الواجهة . وبالطبع ، لم يكن يرى من هذه السلالم الا بقاياها

* يذكر القاريء ان لوح ابسائيل يقول ان طول الضلع ٢٩٥ قدما ـ وبالطبع لنا ان نتغاضى عن هذا الفرق الطفيف بين الرقمين .

المشوهه جدا ، ولكن كان في المستطاع ، قياسا على ارتفاع درجاتها ، ان يحسب ارتفاع السلمين الجانبيين بانه ١٠٠ قدم تقريبا ، وارتفاع السلم الاوسط بانه حوالي ١٣٠ قدما .

هذه هي المعلومات الوحيدة التي هياتها لنا الاثار . اما بقية اعادة البناء فعلينا ان نرجع من اجلها الى «لوح ايساغيل» والتفاصيل التي يرويها هيرودوتس فاذا اعترفنا بان هذا الدليل الادبي يوثق به ، لنا ان نستنتج ان الزقورة ايتيمينانكي كانت تعلو زهاء ٣٠٠ قدم فوق الفناء ، شامخة بضخامتها فوق السطح منازل « بابل الكبرى » . ورغم اننا لا نجد اشارة اليها اقدم من القرن السابع ، فمما لا ريب فيه هو انها كانت قائمة قبل ذلك التاريخ بأمد طويل .* وقد هدمت عدة مرات ، واعيد بناؤها بحماس كل مرة .

* ولنذكر ان المانور اليهودي الذي فيه شيء من ذكراها تم تدوينه كتابة في القرنين التاسع/الثامن ق.م . ، ومن الواضح انه بدوره يعتمد على مانور شفهي اقدم من ذلك بكثير .

ولكن الملكين نابوبولاصر (٦٢٥–٦٠٥) وابنه نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ – ٥٦٢) ، هما اللذان ابدعا في الاضافة اليها وتزيينها (مثلا ، باكساء الهيكل الاعلى باجر مزجج بالازرق وجعلاها في روعة حدت بالناس الى اعتبارها اعجوبة العالم الثامنة . واليوم حيث كان فيما مضى يقوم مبنى هو اضخم ما عرفته الحضارة البابلية ، ليس هناك الا حفرة شاسعة ملأى بالمياه – فالفرات يجري قريبا من المكان ، ومياهه تنضح من خلال التربة .

مع ذلك كله ، فان علينا في هذا الفراغ ان نعيد بناء الصرح الذي قام هناك قبل اكثر من الفي سنة مضت . ولئن تكن بابل نفسها مخيبة من هذه الناحية ، لقلة ماتهيئه من ادلة ، فليس هناك ما يمنعنا عن الاستفادة من المعلومات التي نلتقطها من المواقع الاخرى في العراق . لقد قلت آنفا ان زقورة اور ما زالت مذهلة رغم كل ماالتهم الزمن من اوصالها. وهذا يصدق ايضا على البرجين في اوروك ونيبور ، ونحن نعرف الان ان الصعود اليهما كان بواسطة سلم مثلث . وقد كشفت الحفريات

المنهجية في اوروك كذلك ، عـن هيكلين متناظرين تقريبا عند قاعدة البرج ، على كلا جانبي السلـم الاوسط . ولموقعهما هذا معناه ، ولسوف تكون له اهميته الخاصة في مساعدتنا على فهم المغزى الديني الذي تحمله الزقورة . وعلى مقربة من بابل هناك برجان اخران ما زالا يفصحان عن امجاد الماضي وروعته . اولهما ، برج بورسيبا (بيرس نمرود)، الذي كان يدعي « اي ـ اور ـ مي ايمين ـ ان كي » (« دار الادلة السبعة للسماء والارض ») ، وكان مكرسا للاله نابو . والثاني برج دور ـ كوريغالزو (عقرقوف) ، المدعو « اي ـ جي ـ رين » « دار الثمار » ؟) . انهما ما زالا اضخم مبنيين قائمين في وادي الرافدين . فبرج بيرس نمرود يبلغ ارتفاعه ١٥٤ قدما ، وبرج عقرقوف يبلغ ارتفاعه ١٨٧ قدما فوق مستوى السهل . وفيهما يمكننا في ظروف ممتازة ان ندرس طريقة تثبيت الاجر ، الذي«يشد» بواسطة طبقات من الاقصاب . لقد اختفت السلالم في بيرس نمرود ، اما في عقرقوف فان موقع كل من السلالم الثلاثة ظاهر يمكن تميزه بوضوح .

يلاحظ القارىء انه حتى الان ثبت ان الصعود الى قمة الزقورة كان بواسطة السلالم . ولكن تبين في حالة واحدة ، وهي في خورسباد ، ان طريقة اخرى استخدمت لهذا الغرض:وهي المشى المنحدر الذي يتابع جوانب البناء الاربعة ، صاعدا شيئا فشيئا الى مستوى صحن الهيكل القائم على القمة يبدو ان المنحدر كان من خصائص المنطقة الاشورية والمفترض الان هو ان طريقة الصعود هذه اتبعتها الزقورات الشمالية : في اشور ، وكالح (نمرود)، وكار ـ توكولتي ـ ننورتا .

وقد اوجدت مسالة السلالم هذه ، بالنسبة لبابل ،شيئا من الصعوبة. فقد ميز كولدواي اسس سلم مثلث ، ويذكر القارىء ان المتفق عليه عموما هو ان ارتفاع السلمين الجانبيين احتسب بانه ١٠٠ قدم ، وان السلم الاوسط كان يرتفع حتى ١٣٠ قدما ولهذا السبب فان اعادة البناء تظهر السلمين الجانبيين وهما يبلغان مستوى الطابق الاول ، والسلم الاوسط يستمر بدرجاته الى مستوى

الطابق الثاني .* اما ماالذي كان يحدث فوق هذا المستوى ، فان البحث الاثاري لا يعطينا اي دليل. ولذا كان من الضروري اللجوء ثانية الى المعلومات التي نجدها في كتاب هيرودوتس ، الذي ينص صراحة : « سلم لولبي ... يحيط بالخارج » . وكان لابد بالتالي من ان نستنتج نهجا يوفق بين الدلائل الاثارية والدلائل الادبية ، وهو انه كانت هناك سلالم الى الطابقين الاول والثاني ، ومنحدر الى ما هو اعلى من ذلك . غير ان نهجا كهذا لا يزيل المصاعب كلها ، لانه ليس بالامر السهل ان نوفق بين الاثار «ولوح ايساغيل» ، ورواية هيرودوتس .

لقد تقدم عدد من علماء الاثار والمستشرقين بحلول تتشابه في انها تميل جميعا نحو تبسيط الخطوط ، وحذف الاضافات التي يعتبرونها من تزيين الخيال . وهذه الاقتراحات في معظمها تتبنى

* وفق ما جاء في « لوح ايساغيل » ، انفا ، فان ارتفاع الطابق الاول كان ١٠٨ اقدام ، والثاني ٥٩ قدما ، اي ما مجموعه معا ، ارتفاعا عن مستوى الارض ، ١٦٧ قدما وسوف اعود فيما بعد الى اعادات البناء هذه .

فكرة الصعود بالدرج والمنحدر. وتتبدى الاختلافات عندما نحاول تحديد الطوابق ، لا سيما تعيين عددها . فانا اختلف بوجه خاص مع دومبارت واونجر ، واتفق مع بو سنك على ان البرج كان ذا سبعة طوابق ، يحمل اخرها هيكلا على قمته ، وهو الذي في اعتقادي يشار اليه باسم « شاهورو » في « لوح ايساغيل » . اعادة البناء على هذا النحو تبدو لي منسجمة مع ملاحظة هيرودوتس من انه كان للبرج « ثمانية طوابق » ، وان في الطابق الاعلى «هيكلا» . وهكذا قام برج بابل في القلب من سهل شنعار ، بخطوطه النقية ونسبه المتناغمة المتوازنة. فلاعجب اذن انه كان شديد الوقع في نفس كل من يراه . ولن نعجب ايضا حين نرى المكانة المهمة التي شغلها وما زال يشغلها ، في الابداع الفني .

[illegible]

[illegible]

أن أقدم تصوير لبرج بابل ، فيما أعلم ، يظهر على قطعة عاج في مدينة ساليرنو ، تعود إلى القرن السادس عشر للميلاد ، وأقدم تصوير له في فرنسا [illegible] من القرن الثاني عشر ، ويظهر [illegible] في القرن الثاني عشر في [illegible] رسوم [illegible] .

٢
برج بابل في الإبداع الفني

[illegible]

ان اقدم تصوير لبرج بابل ، فيما اعلم ، يظهر على قطعة عاج في مدينة ساليرنو ، تعود الى القرن الحادي عشر للميلاد ، واقدم تصوير له في فرنسا نجده في مواساك ؛ من القرن الثاني عشر ، ويظهر ثانية في القرن الثاني عشر في مسلسل رسوم سان سافان .

يدهشنا ان يتأخر ظهور هذا الموضوع على هذا النحو .غير انه منذ القرون الوسطى حتى عصرنا الراهن جعل الرسامون، والنحاتون، وصانعو الفسيفساء ، ومصورو المنمنمات، يرونفيبرج بابل موضوعا شديد الايحاء ، كلما عالجوه انطلق بهم الخيال حرا لايكبحه زمام . ولذا ، فانه لما يزيد من دهشتنا ، كما يقول فرانسوا فوسكا ، اننا لا نجد اية اشارة اليه في اعمال « المجددين » الكبار الاربعة في الرسم : البريخت دورر ، رافائيل ، تنتوريتو ،

ورمبراندت . » ولنا ان نضيف ميكيلانجلو ، الذي كان بوسعه ان يحلق بمشاهد الطوفان وسكر نوح في كنيسة الستين مشهدا رائعا للبرج الشامخ في سهل شنعار . لعل هذا الصمت يفسره كما يقترح فرانسوا فوسكا ، ان قصة برج بابل لم تكن ضمن المواضيع التقليدية التي جعلها التاويل الرمزي للاسفار المقدسة مالوفة لدى المسيحيين ، فبقي تصويره امرا نادرا نسبيا .

اما الفنانون الذين لم يغفلوا عن الموضوع ، فكثيرا ما ابرز فيهم موهبتهم على اروعها . ولكنا افقر بكثير لو ان برويغل الاكبر ايضا (القرن السادس عشر) اعرض عن الموضوع . ولو خيرت بان احفظ لوحة واحدة من كل اللوحات التي رسمت عن البرج ، لما ترددت ابدا في اختيار لوحته . ولكانت صعوبتي الوحيدة اختيار صورة البرج المحفوظة في متحف فيينا ، او الاخرى التي تضاهيها قوة والمحفوظة في مجموعة فان بوينغن . فما كان رسام اخر قطعا ليجيد مثله تصوير ضخامة المشروع

العملاقة *: انه كتلة دائرية هائلة تبدو حلقاتها المركب بعضها فوق بعض وكانها حقا ستبلغ السماء.

كان المصورون الاقدمون اكثر تواضعا في افكارهم . فمن القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر ، نرى بنائين يرصفون الاجر بجد ، في برج سداسي الاوجه . وعملهم يستمر آمنا ، دون اي ايحاء بالتعب او الخطر . ثم ان عدد العمال في الصورة عادة محدودة جدا ــ ثلاثة ، او ربما ، اربعة ، واحيانا اكثر بقليل . ولكن الجو في عصر النهضة يتغير : فترى الاشياء على نطاق اوسع ، اذ توحي المعارف للعلماء حينئذ ان المشروع بوسائله وغايته كان شيئا خارقا للمعتاد . فنجد هانس

* جعل الرسام اكثر من سبعة الاف شخص على هذه القماشة التي ماهي الا ٣٠×٢٤ بوصه . . فاذا قسنا البرج على هؤلاء الاشخاص ، كان ارتفاعه قرابة ٣٠٠ ياردة ! وهو مبني ــ وفق كلمات التوراة ــ من اجر فيه شيء من لون وردي ، يذكر المشاهد بالبلاط السومري المشوي ، الذي كنت في حفرياتي اخرجه من الارض في نلو .

هولباين (١٤٩٧ ــ ١٥٥٣) واتيين ديلون (توفى ١٥٨٣) وفيليب غال (١٥٣٧ ــ ١٦١٢) ؛ يدخلون حشدا من العمال الدائبين على تشييد مبنى ضخم اما مائيو مريان السويسري (١٥٩٣ ــ ١٦٥٠) ؛ فيرينا مدينة كاملة تعج بالنشاط : كتل من الصخر تؤخذ من المقالع ، ودخان كثيف يتصاعد من كور الاجر ، والقوافل تصل من كل صوب ، بل انها ، لوجود المنحدر الدائري حول البناء ، تستطيع ان تنقل حتى القمة المواد الضرورية للعمل . ويجري هذا كله على الحافة من مدينة عظيمة تسودها الابراج والقباب ، ويقطعها النهر شطرين وهي مزيج من الشرق والغرب : فيرى المرء الخيل والعربات جنبا الى جنب مع الجمال .

ومنذ ذلك التاريخ تصبح هذه هي النغمة السائدة : حشود من الناس في هرج ومرج دائبون على العمل دونما وقفة . اضف الى ذلك ان هولاء الكادحين هم تحت الاشراف : ثمة اشخاص جدد يظهرون . لاريب انهم يمثلون الملك وحرسه المسلحين . ففي قصة سفر « التكوين » ، كان يهوه هو الذي

ينزل ليشاهد البرج . اما هنا ، فانه ملك ، يستزيد من همة القائمين بالعمل ، كان حالة الطوارىء القصوى قد اعلنت للتو في البلاد .

وهكذا نجد ان رسامين مثل بيتر برويغل ، وروتزامر وبرويغل الاكبر ، ولوكاس فان فالكنبورغ (١٥٣٠ ــ ١٥٩٧) ، وفان كليف ، يتبارون ويتنافسون في معالجة موضوع لن يفهم بعدهم الا كما عالجوه .

ثمة طبعات عديدة من التوراة زينت على هذا النحو ، وليس بين الصورة والصورة الا اقل التباين ولكن يجدر بنا ان نذكر زكرياس دولندو (القرنين ١٧/١٦) بوجه خاص ، لانه لايرسم البرج فقط ، بل يرسم ايضا تشتت الاقوام ، وهم يتباعدون في مايشبه السيول البشرية عن المبنى الذي اغضب يهوه ، فانزل به نارا من لدنه .

وكان الطريق ممهدا للرومانسيين . وهذا غوستاف دورية الفرنسي يقيم برجه ازاء سماء عاصفة . والناس يكدحون كالعبيد لاكماله ؛ بجهد

هو وليد اليأس . الذباب تعرق وتنوء باثقال المواد التي تجرها صعدا على المنحدر اللولبي الى حيث غابت قمة البرج في الغيوم . ويبدو واضحا ان بعض العمال في حيرة ، وبعضهم في قلق حول سير العمليات . غير ان مايعتري المسؤولين عن البناء من شك وتقاعس لن يستطيع الصمود ازاء العزم الشرس الرهيب الذي يبديه سيدهم . وانه ليقف منتصبا على حجر ضخم وقفة الكبرياء والغطرسة ، رافعا نحو السماء قبضتي يده . فكيف لنا ، بعد ذلك كله ، ان نؤكد ان برج بابل ليس قبضة تهدد السماء ، بل يدا ضارعة تمتد اليها ! وعلى الرغم من غوستاف دوريه وغيره من الذين عبروا عن فكرة كهذه ، هذا بالضبط ما اقصد الان الى تبيانه .

٤

برج بابل وعلم اللاهوت

كان برج بابل زقورة . وبما ان معرفتنا بظهور هذا النوع من البناء يعود الفضل فيها الى علم الاثار فمن الطبيعي ان نرجع الى علم الاثار لتفحص مغزاه الخارجي ،في محاولتنا استكناه الاسباب اللاهوتية والدينية التي الهمت تشييد هذه الابراج الضخمة. لماذا اقيمت ؟

الاتيمولوجيا (علم اصول الالفاظ) لاتفيدنا هنا كثيرا . فكلمة « زقوراتو » تتصل بالفعل «زقارو» الذي يعني « ارتفع ، علا » . وكلمة زقورة تطلق اما على قمة الجبل ، او على البرج المدرج .

جاء الرحالة والمستشرقون الاوائل بتفسيرات مادية . فقال نيبوهر ان عقرقوف كانت اشبه بمنصة عالية يقصدها الخلفاء في العهد العباسي للاستمتاع بهوائها البارد ونسيمها الرقيق. وكتب فريسنل عن بيرس نمرود فقال انها لم تكن الا عمارة بنيت على

هذا النحو لكي تهيىء لكهنة الاله «بل» مكانا يقضون فيه الليالي وهم في منأى عن البعوض . والقنصل دي سارزك ، الذي قام ببعض الحفريات في تلو ، عبر عن راي مماثل . وقال لعل الغرض من هذه المباني « الكلدانية ـ البابلية » المرتفعة هو ان تتيح للسكان ملجأ من سحب الحشرات والهوام والرياح اللافحة التي تبتلي هذه المناطق لتسعة اشهر من السنة .

ولكن كانت هناك ايضا تفسيرات أقل مادية. فرأى فكتور بلاس ،الذي نقب عن البرج في خورسباد انه كان مرصدا له « مسحة دينية » بسبب الهيكلين اللذين وجدا على مقربة منه . وجورج بيرو اعترف بان هذه الابراج المدرجة مكرسة لآلهة معينة ، ولكنه قال ايضا ان الناس كانوا يصعدون اليها « لرصد الاجرام السماوية » .

هذه التفسيرات ، التي كان لها نفاذها في القرن الماضي ، لايمكن اليوم قبولها ، بعد ان تراكمت الدلائل الوثائقية بصورة كبيرة ، واخضعها لفحص دقيق الاخصائيون في حقول متباينة للمعرفة : كالآثاريين ، والمهندسين المعماريين ، ومؤرخي الدين.

وهناك الان عدة نظريات حول الموضوع ، سالخصها فيما يلي بايجاز :

١ ـ اولى هذه النظريات تقرن الزقورة بفكرة الدفن ، وتعتبرها ضريحا لملك او إله . يخيل الي ان الدارسين الذين جاءوا بهذه النظرية تأثروا دونما ريب بما راوه من شبه سطحي بين الزقورة والهرم المصري . فبينما الهرم يغطي ضريحا ويخفيه ، فان الزقورة ليست الا منصة مدرجة يراد منها في النهاية ان تحمل هيكلا . هناك مستشرقون آخرون تأثروا ببعض النصوص الكلاسيكية والبابلية . الم يقل الجغرافي سترابون ان برج بابل كان « ضريح بيلوس » ؟ ، الم يشر الادب المسماري هنا وهناك باحترام ، بالقرينة مع الزقورة ، الى شيء غامض يدعى « كيكونو » ، الذي حسب الكثيرون انه يعني « ضريحا » ؟ لايمكنني الدخول هنا في نقاش فيلولوجي مفصل . ولكن يكفي ان اقول ان معنى كلمة « كيكونو » غامض جدا بحيث ان الاسترسال في هذا البحث لن يؤدي الى اية نتائج ايجابية .

٢ ــ التفسير الثاني يؤكد ان الزقورة ، معماريا ، لها معنى « كوني » « ورمزي » فبرج بورسيبا له اسم شديد الايحاء : «دار الادلة السبعة للسماء والارض »،التي تسبح فيها الكواكب السبعة وقد نسب الى زقورة بورسيبا ــ ولكن دون اي برهان اثاري ــ انها كانت ذات سبعة طوابق ، كل منها مكرس لكوكب ، ومصبوغ بلونه الرمزي . فكانت الوانها : الاسود ، والبرتقالي ، والاحمر والابيض ، والازرق ، والاصفر ، والذهبي ، والفضي انا لاابغى اي انتقاص من روعة هذا التناغم اللوني والمعماري ، ان كان قد وجد ،ولكن لابد اولا من التاكد انه قد وجد فعلا ، وهذا امر لم تبرهنه المنشورات الصادرة حول الموضوع . والشيء نفسه يصدق على الالوان (الابيض ، والاسود ، والاحمر ، والازرق) التي كانت تنسب الى زقورة اور ــ مما ينكره مراقبون كثيرون .

والنظرية الرمزية يتفق على بعض اوجهها جانسن والاب لكرانج . فكلاهما يرى في الزقورة نموذجا للارض ، وانها ملك الاله الخالص ، وتهيىء

له ، كما كتب الاب فنسنت ، لا مجرد هيكل شعائري بل ضربا من منتجع يستريح فيه .

٣ ــ في اواخر القرن الماضي طرح ليثابي فكرة جريئة في تلك الايام ، مفادها ان الزقورة كانت « عرش » الاله ، و« المذبح » الحقيقي . وتبنى المهندس المعماري دومبارت هذه النظرية ، ولم يلق صعوبة في ايجاد نصوص تقول صراحة ان الالهة تعشق السكنى في قمم الجبال . وهكذا فان الزقورة تمثل الجبل حيث يجلس الاله على عرشه ليحكم الكون .

٤ ــ ولكن اعمق تاويل ، في نظري ، قدمه المهندس المعماري الالماني و. اندراي، الذي كان تلميذا لكولديواي ، ومسؤولا عن حفريات اثارية رائعة قام بها في اشور . وهو ، فضلا عن ذلك ، التاويل الذي ينسجم اكثر من غيره مع الدلائل الاركيولوجية . ومجمله ان الزقورة لم تكن مجرد برج مدرج . بل انها قاعدة عملاقة ، الغرض الحقيقي منها هو ان تحمل معبدا ، او هيكلا اعلى ، هو مسكن الاله . ويستطيع الاله ان يغادر مسكنه ،وينزل الى المستوى

الاخفض من المدينة ـ الى البشر . فالاله يستعمل سلالم البرج ، لينزل بواسطتها الى الهيكل الادنى عند قاعدة البرج، وهناك يكشف عن نفسه ويتجلى.

٥ ـ هذه النظرية ، رغم ما جوبهت به من نقد ، ولا سيما في المانيا من خبراء كشوط ولنزن هي في رايي صحيحة في جوهرها ، ولكنها بحاجة الى تعديل في تفاصيلها . لقد اثبت علم الاثار ان سكان وادي الرافدين منذ الالف الرابع فصاعدا كانوا يعنون بان يهيئوا لالهتهم مسكنا يعلو على مستوى منازل البشر . ولن اصدق ان ترتيبا كهذا قاموا به لغرض واحد، هو جعل المقام الالهي في مامن من الفيضان وعقابيله . وكانت المنصة ، الشرفة ، اولى النتائج لرغبة الانسان في رفع نفسه . ولكن شغله الشاغل كان يجعله ان يتجه اكثر من ذلك الى الاله الذي عليه ان يطلب رضاه ، والذي سينجذب ولاشك الى التقدمات المعروضة على سطح الدار . وشعائر الفترة السلوقية في العراق (القرن الرابع ق.م .) التي نكاد نجزم بصلتها بمعتقدات عريقة في القدم ، تعطينا تفاصيل التحضيرات والمراسيم التي كان الناس يقومون بها ضمانا لنجاح العملية .

ولئن تكن هذه المعتقدات، وما وراءها من طقوس (في هذه الحالة رغبة الانسان في استنزال الاله الى الارض) ، لم تتبدل كثيرا عبر الحقب ، غير ان المؤكد هو ان الهندسة المعمارية تطورت. ففي حوالي منتصف الالف الثالث جعل الانسان يشيد مباني اعلى فاعلى . لدينا بعد الهيكل المبني على شرفة عالية ،البرج المؤلف من عدة درجات ، ولكن الفكرة فيه ليست مجرد تركيب كتلة على كتلة .انه جوهريا عبارة عن قاعدة ، وتزداد درجاته ضخامة الى ان تغدو ذات ابعاد عملاقة . وعلى مر القرون يرغب الناس في اقامة مبان اشد ارتفاعا . وعلى القمة من المبنى ، دائما ، ينهض الهيكل .

ولكن هذا التطور المعماري يتكشف عن ميل مزدوج . لم يكن ممكنا تصور اله يقيم دائما في هيكل بات صغيرا جدا وجعل الى ذلك ، يبتعد اكثر فاكثر عن البشر وينعزل عنهم . فغدا من الواجب ان يهيأ عند قاعدة البرج هيكل اخر ، اشد لياقة حجما ، واهم من ذلك انه قائم بين ظهراني الناس انفسهم . وهكذا تحقق مجمع من المباني المقدسة

يشتمل على هيكلين اثنين ، احدهما في قمة الزقورة والاخر عند قاعدتها . وغدا الاول العتبة التي يخطو عليها الاله ، وهو يتقبل عبادة المؤمنين وتقدماتهم ، عندما يتجه نحو الارض . وغدا الثاني المسكن الذي للضيف الالهي ان يقيم فيه ماشاء من الزمن.

ولكن علينا ان نمعن النظر في المشكلة . كما قلت ، الايتمولوجيا لاتعيننا كثيرا . الزقورة ، كمصطلح ، لاتقول لنا شيئا ، قطعا . فهل بوسعنا ان نلم بشيء في هذه الصدد ، من الاسماء التي تطلق على الزقورات المختلفة ؟ فنحن نعلم ان هذه الاسماء كانت تتباين . فكما ان لدينا ، مثلا ، كنائس تدعى « الثالوث » ، « الميلاد » ، « الفداء » ، او تسمى باسم احد القديسين ، هكذا كانت الزقورات تحمل اسماء مثل : « دار جبل الكون » (اشور) ، « دار الادلة السبعة للسماء والارض » (بورسيبا) ، « دار الملك المشير بالعدل » (اور)، « دار زبابا واينينا العالية التي راسها في السماء » (كيش)، « دار الجبل » (نيبور) ، « دار الصلة بين السماء والارض » (لارسا)، « دار اساس السماء والارض» (بابل) .

في الامكان اضافة المزيد الى القائمة ، غير ان في هذه الامثلة كفاية . انها متنوعة ، ولكن فيما بينهاقاعدة مشتركه : فالزقورة في كل مكان تدعى « دارا » (اي ، هيكلا) ، ويحوي الاسم في الاغلب الارض والسماء كلتيهما . وهو يذكر في احد الحالات (لارسا) كلمة «صلة » بصراحة . وهكذا يبدولي ان الزقورة هي « رابط وحدة » الغرض منه ضمان التواصل بين الارض والسماء . وحتى اذا لم نجد التعبير عن هذه الفكرة صريحا ، فانه يوحي بها ضمنا . اذ هل « الجبل » الا سلم شاهق يصعد عليه الانسان ليدنو من السماء ماستطاع ؟ لاليلمسها فحسب ، بل ايضا ــ وبوجه خاص ــ ليتقرب كثيرا من الاله الذي يصبو اليه ، ويتوق في الوقت نفسه تسهيل نزوله بين البشر .

عند هذه النقطة ، علينا ان نعود الى سفر « التكوين » . مازال النقاش محتدما حول المشكلات التاريخية واللاهوتية التي تثيرها مجموعة الكتابات التي تشكل الاصحاحات الاحد عشر الاولى . والصعوبة في هذه المشكلات يزداد التاكيد عليها

قياسا على مانراه من « مناشير اللجنة البابويـــه للكتاب المقدس » ، ومن ضروب الجدل التحريري أو الشفهي الذي يتقدم به علماء اللاهوت البروتستانت على اختلاف اتجاهاتهم ومدارسهم .

نجد في كلتا الحالتين ان المقترب العام هو ان يطلب المرء من قصة الاصحاح الحادي عشر من سفر « التكوين » حقيقة اخلاقية وليس بالضرورة حقيقة تاريخية . ونجد ايضا مرة اخرى الراي الذي اشرت اليه في مكان اخر ، القائـــــل بان الروايات هنا « جوهريا » صحيحة ، ولكن قد يوجد فيها « عدم دقة في التفاصيل » . ومع ذلك فانني ارى ان القصة التوراتية « تاريخية » بصورة عميقة ، اذ تكثر فيها تفاصيل تعتمد على دلائل محققة ، وعلى وقائع لفت النظر اليها آنفا . ولكن القصة بوضوح اكثر من ذلك ، لاهوتية ، بما تبديه من حكم قاس على مشروع تعبدت بهالبشرية . فهي اذ تبني مدينتها وبرجها بنجاح يعود الى كونها موحدة (شعب واحد لغة واحدة) ، تثير غيرة يهوه وغضبه . ولذا فان نجاحها ، الذي قد يصبح قدوة للاخرين ، يصبح

تهديدا لا يطاق ، يسحقه يهوه بلا تردد ، فارضا على الناس البلبلة والتشتت .

كانت هذه الادانة القاسية للبشر موضوع تعليقات كثيرة . فالعديد من دارسي التوراة وعلماء اللاهوت* وبعضهم (كالاستاذ اي . جاكوب مثلا) على علم وثيق بمكتشفات علم الآثار ولو انهم رغم ذلك لايتفقون معي على استنتاجاتي — مازالوا يخرجون عن طريقهم ليجدو تبريرا لها ، فيشجبوا « الوثنية الرهيفة الكامنة حتى في من هم اشدنا تقوى ، والتـــي تبقـــى مهما يكن الثمن الصعود الى السماء واجبار الاله على النزول الينا »او انهم يصرون على ان المبادرة كان ينبغي ان تصدر عن الله لان « الانسان انما يصعد نحو الله بأمر منه فقط ، كما فعل موسى على طور سيناء ، ويفل ذلك وهو راجف خاشع . ان يهوه ليس بحاجة لان يبني له البشر

* اود التاكيد هنا ان هذا الجدل كان دائما مصحوبا باعظم اللطف والدماثة . ومناقشة اراءنا المتناقضة لم تنل يوما من الصداقة وحسن العلائق بيننا . وانا مسرور جدا لهذا الامر .

طريقا يسلكه قبل نزوله الى الارض .» ويكتب آخر قائلا : « يمثل برج بابل ذلك الضرب من الخطيئة الذي يوعز للانسان ، لا ان يكون في غنى عن الله ، بل ان يجعل لنفسه اسما (اي ، ليضمن نفسه ازاء مصيره) بواسطة مشروع ديني يستهدف منه بوضوح ان يجعل من الله في السماء جارا ثابتا في مسكن ارضي . »

ولكن علينا الا نستطرد عن غرضنا . يجب الا نحكم على برج بابل ، كما يفعل الكثيرون ، وفق موقف عقائدي ، بل في ضوء الدلائل الاثارية والتاريخية — في ضوئها دون غيرها . ان قسوة الراوي اليهوي قابلة ايضا لتفسير تاريخي بسيط: كان لدى اليهود اسباب كثيرة للشكوى من بابل فجعلوا يرونها رمزا دائما للوثنية والاضطهاد . وصحيح ايضا — وهذا اعترف به طائعا — ان كبرياء الانسان وغروره لا حد لهما . والملوك — لا في الامس فقط بل اليوم ايضا — يتمتعون بالكتابات المنقوشة المسهبة ، واستعراض اعمالهم العظيمة وما صنعته ايديهم . هذا كله صحيح

جدا . ولهذا لو اراد سكان سهل شنعار فعلا ان يبنوا برجا يرقون به الى السماء لاعلان الحرب عليها ، لكان ذلك خطيئة منهم — خطيئة كبرى . ولكن المؤكد هو انهم لم يقصدوا الى شيء من ذلك قط . افهل يلومهم احد لرغبتهم في الدنو من السماء ، اي في الاقتراب من آلهتهم ؟ هذه هي المشكلة . اذا كان الامر كذلك ، فلنكن منطقيين علينا حينئذ ان نشجب كذلك كل مابناه الانسان من هذا القبيل ، كابراج كنيسة نوتردام ، وقباب كاتدرائية شارتر ! ثم ، فلنعترف ان هذه الفكرة عن اله غضوب يأتي ويزرع بيديه الشقاق — مصدر الحروب كلها والكراهية كلها — في القلب من انسانية موحدة ، وبالتالي **مسألة** ، يثير مشكلة لاهوتية علينا ان ننظر في خطورتها بكل جدية .

ما سأقوله هنا قلته في مكان اخر ، وساكرر الان : ان برج بابل هو كاتدرائية العصور الغابرة . بل انه اكثر من ذلك ، لان البشرية عندما شيدت الكاتدرائيات كانت قد عرفت الرؤيا المسيحية .

وفي الالف الثالث قبل المسيح كان الجنس البشري لما يزل يتلمس طريقه ، ولكن الاناس كانوا قد بداوا يضمون ايديهم في وقفة الصلاة ، ويرفعون اعينهم بالسليقة نحو السماء . في تشرين الثاني من عام ١٩٥٢ ، عند قاعدة زقورة قديمة في ماري اكتشفت هيكلا مليئا بتقدمات نذرية في اشكال تماثيل صغيرة لمتعبدين واقفين وايديهم مضمومة . كانوا بالطبع يتعبدون ويصلون لالهة كاذبة ، غير ان الخطوة الاساسية كانت قد اتخذت : لقد كانوا يتطلعون الى ماوراء الدنيا . والزقورة التي بنوها هم ايضا انما كانت درجة في سلم : وهذا السلم كان يعلو نحو السماء .

ولنفتح كتاب التوراة مرة اخرى . في بيت ايل حلم يعقوب ـ حفيد ابراهيم الرافديني ـ انه راى سلما تبلغ قمته السماء ، وحافته السفلى ترتكز على الارض . يجب ان استشهد بالنص ، لاننا سنجد فيه ما احسب انه البرهان الفصل على ان تفسيري هذا صحيح :

« ونزل في مكان معين ، ومكث هناك طوال الليل ، لان الشمس كانت قد غربت . واخذ

من المكان حجارة وضعها كالوسادة ، واضطجع في ذلك المكان لينام وراى حلما ، واذا سلم قائم على الارض ، تبلغ قمته السماء ، وراى ملائكة الله تصعد وتنزل عليه . وراى الرب واقفا في اعلاه ، ويقول : انا الرب اله ابراهيم ابيك ، واله اسحق... واستيقظ يعقوب من نومه ، وقال : يقينا ان الرب في هذا المكان ، وماكنت اعلم ذلك . واصابه خوف ، وقال ، ماارهب هذا المكان! ماهنا الا دار الله ، وهذا باب السماء . »

(سفر التكوين ، ٢٨ ، ١١–١٣ و ١٦–١٧)

« باب الله » (تكوين ، ١١ ، ٩) ، « باب السماء » (تكوين ، ٢٨ ، ١٧) : لايمكن الفصل بين النصين ، والثاني يسعفنا في فهم الاول . كان برج بابل سلما ، والهيكل الذي يحمله « بابا » . وفي ذلك نجد توقعا غريبا مؤثرا لصرخة اشعيا : « آلا ليتك تشق السماء ، فتنزل ! »

والمسيحيون يؤمنون بان الله ، عشية الميلاد، نزل فعلا الى البشر .

المحتويات

١ ـ مقدمة . برج بابل ٥

٢ ـ الدلائل الادبية والكتابية ٩

٣ ـ الدلائل الاثارية ٢٩

٤ ـ برج بابل في الابداع الفني ٥٧

٥ ـ برج بابل وعلم اللاهوت ٦٥

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ ببغداد
« ٤ لسنة ١٩٨٠ »

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٠ هـ ـ ١٩٧٩ م